

الباب الرابع

عصر العرب الذهبي بالاندلس

الفصل الأول

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

(٣٠٠ - ٥٣٥٠ - ٩١٢ - ٩٦١ م)

اعتلى عبد الرحمن عرش البلاد بعد وفاة جده وهو ابن محمد ابن الامير عبد الله الذي قتل في ريعان شبابه بسبب خروجه على الامير كما مر بنا ، وامه مسيحية تسمى مريم او مزنة ، وقد عنى جده بتربيته في القصر ، وكان يحبه ويؤثره على بنيه حتى بلغ اشدده ، فكان يرشحه لولاية الامر بعده ، ويقمه احيانا مقامه لاستقبال الجنود والزوار ، ثم أوصى بولاية العهد له امام الامراء وولاة الاقاليم فالتفت حوله قلوب الرعية ، واحبه الناس لجمال سجايه الفطرية ، وكمال مزاياه الكسبية

يقول كندى « قد احسن مر بوه تربيته منذ نعومة اظفاره ، فأقرأه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو. والشعر والامثال ، وتاريخ حياة الملوك وسياسة الملك ، وعلوما اخرى اجتماعية ، ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب وضروب الفروسية عند ما اخذ بخطوط في الحادية عشرة

جلس عبد الرحمن على كرسى الامارة وهو في السنة الثانية والعشرين من

عمره ، ولم ينازعه الحكم أحد من أعمامه ولا أعمام أبيه بل بايعه الجميع ، وقابل الشعب جلوسه بابتهاج منقطع النظير ، ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة ٥٣٠٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢ م) وفي ذلك اليوم يقول احمد ابن عبد ربه من قصيدة

بدا الهلال جديدا والمملك غض جديد
يانعمة الله زيدي ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فانت للدهر عيد

سياسته الداخلية :

جعل سياسته من بداية أمره مقامة على الصراحة والجرأة والثبات ، وعدل عن سياسة الوفاق والتردد التي اتبها أجداده في معاملة الثائرين والعصاة ، وأرسل إلى حكام الأقاليم الخارجين على قرطبة أن يسلموا حصونهم وبلدانهم ويعلنوا خضوعهم وطاعتهم ، ووعد من أسرع إلى الطاعة العفو ، وتوعد من يتردد من الانتقام ، وكان يبدو أول الامر ان هذه الخطة ستجر عليه تساند أعدائه وتحالفهم ضده لصد هجماته ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك بسبب خلو البلاد من زعمائها الذين قادوا الثورة في أول انفجارها ، وكانوا زعماء محنكين وقادة قادرين ، فبعد سعيد بن جودي وكريب وابن خلدون وابراهيم بن الحجاج لم يكن هناك من يخلفهم ويملاء الفراغ الذي خلفوه ، أما زعماء المولدين من الاسبانيين فكانوا قد بلغوا من الكبر عتيا وهدت الشيخوخة كيانتهم ، وأصبح الشعب زاهدا في تسيطهم على شئونه راغبا عن قيادتهم ، يتوق إلى وضع حد للثمن والفوضى لتجنب ويلات الحرب الأهلية وماجرته من خراب ودمار ، وقت في عضده ماشه من تبدل الحال وثبات عرش

السلطان على كافة النير واحداث الزمن ، فأخذ إلى السكينة وأعلن ولاءه للسلطان
فسلمت غرناطة والبيرة ، وسقطت جيان واستسلمت أرقيدونه ، وهنا يعترف
المؤرخون المسيحيون بأن عبد الرحمن الثالث عامل المسلمين من المسيحيين
بكل انصاف وعدالة

وامتنع الجليليون عن الانضواء تحت لواء ابن حفصون ، فاضطر إلى استئجار
الجند المرتزقة من بربر طنجة ، وهؤلاء كانوا دائماً على استعداد للتسلل من
صفوف القتال إلى صفوف الأعداء نظير رشوة أو زيادة أجر ، ولما كان مثل
هؤلاء الإعوان لا يصح الركون اليهم ، ولما كان هذا غير خاف على ابن حفصون
فأنا نراه في مستهل ٩٠٩ م يعترف بسيادة عبيد الله الشيعي (سعيد بن عبد الله
القдах) وكان هذا ينازع بني الاغلب السيادة على بلاد البربر ، هذا إلى ما آل
اليه الاسبان في منطقة غرناطة وحول البيرة وجيان من تدهور خاقي وأنحطاط ،
فقد انقلبوا من طلاب حرية واستقلال إلى قطاع طرق وخوارج على كل قانون
ينقضون كالفسور على كل عابر مهما كان دينه ومعتقداته ، وينهبون الصديق والعدو
بلا فارق ، فعم السخط عليهم وتطلع الكل إلى السلطان يدتغون أن يخلصهم من
شور هذه العصابات ، وكان ابن حفصون أول الأمر معدوداً كزعيم سياسي
ينضوى تحت لوائه كل اسباني مسلماً كان أو مسيحياً ، أما بعد أن ارتد عن
الاسلام هو وحليفه الاكبر ابن مستقنه وبنو الكنائس الفخمة فقد أصبح صموئيل
أو ابن حفصون كما سمي نفسه لا يثق إلا بالمسيحيين ، وأصبح وكره (حصن
بيشتر) بؤرة التعصب ، واندجحت ابنته أرجنتينا في زمرة الراهبات ، وكان هذا
نذيراً بانقسام أنصاره على أنفسهم وقيام النزاع بين المسيحيين والمسلمين منهم
وبدأت أستجة بالتسليم ليد حاجب عبد الرحمن في ٣١ ديسمبر ٩١٢ م بعد

ارتقائه العرش بشهرين ، وقاد عبد الرحمن بعد ذلك جنده بنفسه فنفث ذلك فيهم روح الاستبسال ، فارسل كتيبة من جنده إلى أرقيدونة وأخضع هو سعيد بن هذيل في قصره ، وكان محانقا لسموئيل . وتقاطر أمراء القصور يستسلمون وينزلون عن حصونهم لعبد الرحمن . فكان يرسلهم وعبائهم إلى قرطبة وينصب العمال بدلا منهم . وسلت اليه مقاطعة البيرة . فسار منها إلى منطقة جبال سيرا نفادا . وصد هجوم سموئيل على مدينة البيرة .

وهكذا استطاع في شهرين أن يؤمن أهل غرناطة والبيرة على أنفسهم من شرور الأمراء السلايين ، وأن يخضع المسيحيين الثائرين . ثم فكر عبد الرحمن في أشبيلية ، وكان هناك نزاع حول إمارتها بعد وفاة ابراهيم بن حجاج ، فذهب محمد بن حجاج إلى قرطبة واعترف بخلافة عبد الرحمن ، وكان سموئيل يبنى نفسه بالدخول في النزاع واختطاف جزء من الغنيمة فزحف على أشبيلية ولكن عبد الرحمن هزمه فارتد الى بيشتري .

اخضاع ريه (ريجيو)

وعزم عبد الرحمن على الزحف على ريه (ريجيو) ففتح حصونها ، واستأمنه أهلها فأمنهم . ولم يبق أمامه إلا حصن طرش وكان فيه ابن حفصون نفسه (سموئيل) ، وما كان هذا يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا في تلك البقاع ، لأن سموئيل قد نشر فيها لواء العصيان ونفخ في أرجائها روح النصرانية حتى كاد ظل الاسلام يتقلص من بوعها ، لكن سهل فوز عبد الرحمن ما شهدته فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل ، ومراعاة اليهود والمواثيق ، وتخفيفه للضرائب والمغارم التي طالما أرهقت الأهليين ، واستولى أسطوله على سفن ابن

حفصون التي كانت تنقل الاقوات والجند المرتزقة من أفريقية
ورأى صموئيل نفسه مغلوبا على أمره ففر إلى أفريقية عليه يجد فيها جندا
يجمعهم فيزحف بهم لاسترداد بلاده ، وسار عبد الرحمن إلى قرمونه فأخضع ثورة
شبت فيها ، ومر في طريقه بالجزيرة الخضراء ثم شدونه قبل دخول قرمونه في
يونيه ٩١٤ م

وفي تلك السنة حل بالأندلس قحط مريع أودى بحياة الألاف من أهل
قرطبة ، وكنت سواعد أهلها عن دفن الموتى فخفف عبد الرحمن من مصاب
الناس وأكثر من الصدقات ، وكف عن الغزو تلك السنة ، ولم يلبث صموئيل
أن توفي ٩١٧ م ، وطوى الموت شخصية قوية طالما أزهبت جنوب الأندلس ،
ونفخت فيه روح الثورة وحب الاستقلال
عبد الرحمن سيد البلاد :

تم الأمر لعبد الرحمن بموت ابن حفصون ، وتخلص من شر خصم وألد عدو
وكان لابن حفصون أربعة أولاد : جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص و بنت هي
أرجنتيا سابقة الذكر فاستسلم أحدهم حفص ودخل في خدمة الخليفة ، أما اخوته
الثلاثة فقد ظلوا يناوئون عبد الرحمن الواحد بعد الآخر ، وسعوا في إتمام ما بدأه ،
أبوهم من تحرير الوطن الأيباني ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وسقط حصن
بيشتر وكرتلك المصابة ٩٢٨ م فأغرى الفقهاء الخليفة بنهب قبر صموئيل وابنه
جعفر وأرسلت جثتها إلى قرطبة حيث صلبتا منكستين ، وضربت عنق الفتاة
لأنها رفضت العود إلى الاسلام ، وأتم عبد الرحمن إخضاع الجهات النائرة ،
فأخضع بني المهلب من البربر النائرين في البيرة ٩٢٤ م وأخضع بلنسية ، وفي
٩٢٦ م أخضع بني ذى النون ، ورأى أن لاخوف حينئذ من الجنوب فوجه قواه إلى

جهات أخرى فاضع تدمير وماردة وبطليوس معقل ابن مروان ، وكانت طليطة ما أخضع ٩٣٢ م بعد حصار دام عامين ، وكان يدها ملك ليون واستمر الحصار صيفا وشتاء ، وبنى عبد الرحمن حصنا اسمه الفتح تأوى اليه جنوده ، ثم شرع في معالجة مساوىء الماضى ، فساوى بين المسلمين والمسيحيين ، وعمل على مزجها ليكونا شعبا واحدا بلا اعتبار للفوارق الدينية أو الجنسية وفرح عبد الرحمن بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة بيشتر

وانتهت تلك الفتن بتوطيد دعائم الملكية وترسيخ نظمها ، ففازت بقر أعدائها من العرب والبربر والاسبانيين نصارى ومولدين . وكان أمراء العرب وشيوخهم أكثر الثوار خسارة ، إذ فقدوا كل نفوذ لهم ، وبعد ان كانوا دعائم وأنصار تقييد السلطة الملكية أصبحوا ولا حيثية لهم فى الدولة ، ولا بأس لهم يخشى ، ولا سطوة تحسب الملكية لها حسابا ، وربما كان فى هذا بعض العزاء للاسبانيين الذين غلبتهم الملكية على أمرهم ، إذ انهم فى الواقع لم يشوروا بدافع الكراهية لشخص الملك بل كراهية للامراء من العرب الذين احتقروهم وأذلوهم وظلمهم

وأخيرا عمد عبد الرحمن إلى مزج عناصر المحكومين بلا فارق بينها فى الجنس والدين لتكوين شعب واحد وساوى بين جميع المحكومين ، وكان هذا فى حد ذاته كسبا للاسبانيين ، إذ لم يكونوا فى الحقيقة دعاة حرية فسيحة المدى ، فالحكم المطلق كان معروفا لديهم وقد الفوه مدة حكم القوط والرومان

حروبه الخارجية :

لم تكن مشاغل عبد الرحمن قاصرة على اخاد الثورات الداخلية التى كانت تضطرم فى داخل ملكه ، بل زاد فى مشاغله ومتاعبه أطماع دولتين خارجيتين

أحدهما قديمة في الشمال وهي دولة ليون ، والأخرى حديثة في الجنوب وهي
الدولة الفاطمية

مملكة ليون :

أولاً — في أثناء الفوضى التي سادت بلاد الأندلس على عهد عبد الله بن محمد تشجع المسيحيون في جليقية واستورقة وكانتا برياً تحت قيادة الفونس الأول وزحزحوا البربر جنوباً إلى مصب نهر دورو كما مر بنا ، وعاد الفونس بعد ذلك إلى الشمال ، وظل البربر يتقهقرون بعد ذلك أمام هجمات مسيحي الشمال حتى أخلوا سلمنقه ، وأصبح الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين خط يصل بانبلونة ووادي الحجارة بطليطلة على نهر التاجة ٧٥١ - ٧٥٤ م ، ولما ثارت الفتن والاضطرابات على عهد عبد الله بن محمد أصبحت ليون زعيمة الشمال المسيحي ونصيرة ثواره ، فأقامت الحصون المنيعة ، وزحفت مرة أخرى على المسلمين وزحزحتهم إلى نهر دورو ، وتحالفت ليون مع طليطلة ومع سانكو ملك نافار ، وأصبح المسلمون في نظر المسيحيين غنيمة لا يمكن أن تفلت من أيديهم ، ودفعهم الغرور إلى التطلع نحو الجنوب وزحزحة المسلمين عنه حتى يلقوا بهم في البحر من حيث أتوا ، وكان يركى روح التعصب فيهم القسوس ، ولذا كانوا دائماً قساة في حروبهم ، وحوشاً في مسلكتهم مع سكان المدن من غير المحاربين لا يعرفون إلا الإبادة والحرق والتخريب ، ولم يخطر لهم ببال قط أن يعاملوا المسلمين كما عاملوهم بالتسامح والحسنى . فماذا عسى يكون مصير الأندلس الإسلامية المتحضرة المزدهرة إذا سقطت في أيدي هؤلاء الجهلاء المتعصبين الذين لا يعرفون النقود ، ويتجرون بالمبادلة ، ولا يعرفون القراءة والكتابة وان احتاجوا إلى مساح لأراضيهم لجأوا إلى المسلمين ، وإذا ذكرت مكتبة استعاذوا بالمسيح وعدوها رجسا من عمل الشيطان . لقد ألقى القدر

على عبد الرحمن عبء تأديب هؤلاء المتوحشين ، وانقاذ الحضارة الاسلامية من ويلاتهم ، وكان العبء فادحا حقا ، لأن الخليفة كان يجاهد الثوار من رعاياه وقت أن اضطرته الظروف إلى قمع مسيحي الشمال المتوحشين الذين ازدادوا قحة لما انسوه من ضعف الدولة الاسلامية وقرب انحلالها ، كما اضطرته الظروف ايضا إلى قمع برابرة افريقية المتوحشين الذين انقضوا على حلفاء الأندلس من أمراء المغرب واستولوا على أرجاء فسيحة فيها ، وظنوا بالأندلس الظنون ، وكانوا يعتقدون انها في متناول أيديهم ، ولكن عبد الرحمن لم يضطرب ولم يتراجع أمام العبء الملقى عليه فأخضع رعاياه الثائرين ، ثم التفت إلى هؤلاء المتهمجين

ففي عام ٩١٤ م استولى اوردونو الثاني ملك ليون على حصن بجوار بطليوس وخرب مقاطعة ماردة ، وكان يقتل جميع الأسرى ويسبي كل النساء والاطفال وارتاب أهالي بطليوس فجمعوا مالا وفيرا وقدموه اليه ليرجع عن مدينتهم ، فعاد مثقلا بالاسلاب إلى ما وراء نهر الدورو ، وانشأ في مدينة ليون كنيسة للعدراء ، ومع ان بطليوس كانت إذ ذاك نائية على عبد الرحمن فانه لم يتعاس عن حمايتها من غارات المسيحيين ، فأرسل جيشا بقيادة ابن أبي عبده ٩١٦ م ، لتأديب المسيحيين فانصر أول الأمر ، ولكن اوردونو هاجمه فهزمه هزيمة كبرى ، وفر من حوله جنوده البربر المرتزقة الذين جلبهم السلطان من طنجة والاسبانيون المولدون من أهل الثغور ذوى النفاق الذين لا يعتمد على ولائهم ، واختار ابن أبي عبده الثبات على الفرار ، فقاتل وحوله فريق من خاصته حتى قتل . ولم تغل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن فأراد أن يسير بنفسه لقتال اوردونو ، ولكن غزوة الفاطميين لبلاد المغرب شغلته عن ذلك ، وخشى عبد الرحمن ان يولى الفاطميون وجوههم نحو اسبانيا ان تم لهم اخضاع بلاد المغرب ، فطفق يمد بالمساعدة امراء تلك البلاد

حتى يكون المغرب دروا لبلاد الاندلس ، فلما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية كتب إلى سعيد بن صالح امير ناقور وهي مدينة بالمغرب على مقربة من البحر مكانها الآن مدينة المزمة — يدعوه إلى طاعته فرفض سعيد واحفظ هذا الرفض عبيد الله فسير قائده مصالة بن حبوس لحرب سعيد فهزم سعيد وقتل ٣٠٥ هـ وكان سعيد على احسن مودة مع الامويين بالاندلس ، فدخل مصالة ناقور وقتل رجالها وسبي النساء والذراري ، ونجا بنو سعيد لانهم فروا وركبوا البحر إلى الاندلس

ونزل الأمراء اللاجئون مالقة فأمر عبد الرحمن الناصر بالحفاوة بهم ، واختاروا البقاء في مالقة ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث في وطنهم ، وعلم بنو سعيد بعد ستة أشهر ان مصاله عاد إلى تاهرت وأقام بناقور قائدا من كتامة اسمه ذلول ، وان عسكر هذا القائد قد انفضوا من حوله ، وكان بنو سعيد ثلاثة : إدريس ، والمعتمد ، وصالح ، فامتطى كل منهم البحر في سفينة في ليلة واحدة ، واتفقوا على أن من يصل منهم إلى ناقور قبل أخويه يكون أميرا ، فسبق إلى الشاطئ أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الأهليون بحماسة شديدة ، والتفوا حوله وقتلوا ذلولا وجنده ، وأعلن الأمير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده ، وكتب إليه يشكره على حسن صنيعه مع أسرته ويطلب منة المعونة ، فأمد الخليفة بالأسلحة والخيام والرايات .

يقول دوزي : ألهت حوادث ناقور عبد الرحمن الناصر عن أن يقتص من مملكة ليون المسيحية لقتل قائده الباسل ابن أبي عبده ، ولكن المسيحيين جاءوا بما زعمه إلى وجوب القصاص منهم ، ففي ٩١٨ م ٣٠٥ هـ خرج أوردونو الثاني ابن الفونس (ويسميه العرب اردن ابن اذفونش) وحليفه سانكو (شانبه)

صاحب بنبلونه فأغاراً على البلاد الاسلامية ، وأعملا السيف والنار فيها ، وهما
المساجد ، فأرسل عبد الرحمن الناصر حاجبه بدرا في جيش عظيم ، ودارت رحى
معركة طاحنة ٩١٩ هـ ٣٠٦ م هزم فيها المسيحيون . وتقهقروا معتصمين بالجبال ،
ولحق عبد الرحمن بالجيش فنكل بالمسيحيين ، ودمر حصونهم وأحرق القرى ،
وأباد الجيوش وأخيراً غزا نافار ٩٢٤ هـ ٣١٢ م فلقبه سانكو ، وانتصر عبد الرحمن
عليه ، ووصل إلى بنبلونه عاصمة النافاريين ووجد أهلها قد فروا منها رعباً ، فدمرها
عبد الرحمن وخرب كنيسنها التي كان يحج إليها النصاري كل عام ، وكذا خرب
كنيسة أخرى على جبل قريب منها كان سانكو قد أنفق على بنائها نفقات طائلة .
وقد أضمت هذه الغزوة سانكو ملك نافار فلم يعد الخليفة يخشى بأسه ، ولم
يهم بأمر مملكة ليون لأن الثورات الداخلية كانت تمزقها ، وأهلها يتناحرون
ويقتل بعضهم بعضاً ، فتركها عبد الرحمن ولوهاجها لفضى عليها وأراح
الأندلس من شرها ، وقد ندم عبد الرحمن على تهاونه هذا إذ دفع ثمنه غالباً
فيما بعد

حلف أمير مسلم خائن وملك ليون :

حقد محمد بن هاشم أمير أرجونه على عبد الرحمن رغم تساهل الخليفة معه
وتركه في أمارته حراً ، ودفعه الحسد إلى مخالفة ملك ليون راميرو الثاني وأمير نافار
جارسيا الذي كان تحت وصاية أمه تيودا أرملة سانكو ، فعاد عبد الرحمن إلى الاهتمام
بشأن ليون لما رأى ملكها راميرو يزحف على مدريد (مجريط) ويستولى عليها
ويسير لنجدة طليطلة النائرة على الخليفة ، وقد رأينا كيف لم تغلح مساعي ملك ليون
في نجدة طليطلة وإن المدينة سقطت في يد عبد الرحمن ٩٣٢ هـ ، وفي ٩٣٧ م سار عبد الرحمن

على رأس جيشه لاختضاع الشمال وعقاب الخائن ابن هاشم ، وانتصر على المتحالفين وهدم ثلاثين حصنا من حصونهم ، وحاصر سرقسطة ودخل نافر ، فلم إليه محمد بن هاشم ، ولعظم مكانته عفا عنه الخليفة وثبته في منصبه ، وطلبت تيودا الوصية على ابنها جارسيا الصلح وتمهدت بدفع الجزية لعبد الرحمن ، ولم يعد خارجا عن طاعة الخليفة من الأندلس إلا ليون وجزء من قطلونية ، فأراد عبد الرحمن إخضاع ليون ولكنه هزم شر هزيمة في موقعة الخندق ٥٣٢٧ هـ ٩٣٩ م لخيانة العرب والبربر من قواده وذلك انهم استاءوا من توليته نجدة الصقابي منصب القيادة ، فقتلوا من المعركة وتجنبوا القتال حتى قتل نجده ، وغطت اشلاء القتلى وجه الارض ، وهزم جيش عبد الرحمن على انه استطاع ان ينجو بنفسه مع نفر قليل من خاصته ، وساعده الحظ ان تفرقت كلمة المسيحيين فلم يطاردوه ولجأ فريق منهم اليه يحكمونه في خلافتهم الداخلية

الفاطميون وعبد الرحمن :

كان من اثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية ان لجأ بعضهم إلى اطراف الدولة ينشرون دعوتهم لقيام دولة واكتساب اشباع لهم ، وكانت بلاد البربر اصلح الاقاليم لقبول هذه الدعوة لبعدها عن مركز الخلافة ولكراهية البربر للعباسيين الذين ابهظوا كاهلهم بالضرائب ، وكثرت ثورات البربر حتى اقنع ابراهيم بن الاغلب هرون الرشيد بالاعتراف له بالامارة على بلاد البربر على ان يدفع الجزية للعباسيين فقامت دولة الاغلبة بشمال افريقية وعاصمتها القيروان كما سنبين بعد

وفي عام ٩٠١ م ظهر بتلك البلاد أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة المذهب
الإسماعيلي ودعا ظاهرا لأولاد علي وفاطمة ، واستطاع أن يمهّد الأمر لزعيم
الإسماعيلية سعيد بن عبد الله القداح الذي ادعى أنه المهدي المنتظر ، وسمي
نفسه عبيد الله . واستطاع عبيد الله أن يجمع البربر حوله ، وأن يسقط الدولة الأغلبية
في مدينة القيروان ، ويؤسس بدلها مدينة المهديّة في تونس أيضا ، وأن يبسط
نفوذه على شمال أفريقية ، وكان هنالك ترأسل بين الأغلبة وابن حفصون كما مر
بنا ، واتفق أن علم عبيد الله المهدي بتلك الرسائل وسمع من ابن حوقل الرحالة
الشيعي بما كان في بلاد الأندلس من فتن مندلعة فطمع في الاستيلاء عليها ونجح
إلى حد ما في إرسال رسله لنشر دعوته فيها

وامتطاع رسوله مسره أن يمجده له سامعا فيها ، ولكن أحد الأمراء الأمويين
واسمه أحمد بن معاوية لم يسمح لمحتال أجنبي أن يبزه في الأحيال ، فسبق مسره
وأعلن نفسه المهدي المنتظر ، وكان البربر في الأندلس كأخوانهم في أفريقية
سريعي التصديق فانضموا إليه للجهاد تحت رايته مصدقين مزاعمه ، فقادهم للهجوم
على المسيحيين الذين ظلما أذاقوا البربر صنوف أهوان ، وكان أحمد يدعى أن
الحصون ستسقط إجلالا له بمجرد ظهوره أمامها ، ويوهمهم بأنه يقوم بخوارق
الكرامات ، وحالفه الحظ أول الأمر فانتصر على الفونس الثالث ملك ليون بالقرب
من حصن سموره ، ولكن قواد البربر تملكتهم الغيرة فعزموا على أن يقلبوا له
ظهر المجن ، فهاجموا المسيحيين ثم هرب فريق منهم ، ولكن ثبت معظم الجيش
ولم ينل ملك ليون نصرا ، إلا أن البربر بدأوا يشكون في صحة دعوى المهدي ،
وانفضوا من حوله وتركوه يقاتل مع فريق قليل من مؤيديه حتى قتل وعلق الفونس
الثالث رأسه على باب حصن سموره . وهكذا قدر لمشروع مهدي أفريقية أن لا يتحقق

إذ سبقه فيه سابق من أمراء البلاد أنفسهم

وفي عام ٩١٧ م ٣٠٥ هـ استرد صالح بن سعيد امارة ناقور ، ودخل في حماية الناصر ، وفي ٩٢٩ م استطاع محمد بن خاذر زعيم البربر أن يخلص أفريقية الوسطى من يد الفاطميين بعد أن قتل بيده قائدهم مصاله ، وأدخل هذا الاقليم أيضا تحت حماية الناصر ، وفي ٩٣١ م احتلت جنود الناصر مدينة سبتة وحصنوها برا وبحرا ، وكان الناصر قد ابنتى أسطولا نازع الفاطميين السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط

وفي سنة ٩٤٥ م استطاع المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين استرجاع نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد المغرب فطرد عامل عبد الرحمن علي سبتة وقتل أبا يزيد زعيم البربر ٩٤٧ م

يقول دوزي : بأن الناصر أمر بلمن الفاطميين على جميع منابر الأندلس بسبب هذا الاعتداء ، وإنه كلف قائده غالبا أن يهاجم بأسطوله سواحل افريقية ولكنه لم يكن موقفا في حملته هذه ، ورجعت الحملة بعد أن فازت بعض الفوز .

وأما ابن خلدون فقد قال في هذه الغزوة ما يأتي :

« بعث المعز إلى الحسن بن علي عامل صقلية عام ٣٤٤ هـ أن يخرج بأسطوله إلى ساحل المرية من بلاد الأندلس ، فعاش فيه وغتم وسبي ورجع ، فأخرج الناصر صاحب الأندلس أسطوله إلى سواحل افريقية مع غالب مولاه ، فمنعهم المساكن وأقلعوا ، ثم عادوا سنة ٣٤٥ هـ في سبعين مركبا فأحرقوا مرسى الخزر ، وعاثوا في جهات سوسه ، ثم في نواحي طبرقة ورجعوا »

ويؤخذ من كندى ورومى ، نقلًا عن كتاب محمد بك دياب ، أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتئذ احمد بن سعيد (أحمد بن عبد الملك بن شهيد في عرف المقرئ) الذى امتاز بفوزه فى غزوة جليقية الأخيرة فحقق للخليفة امكان انتقامه من المعتدين ، وجمع السفن من شواطئ اسبانيا ، وقادها إلى وهران مقلة عددًا عظيمًا من رجال الحرب الأشداء ، وجمع من فرسان الأندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ، ثم هجم بالرجلان والفرسان على افريقية ، فقابله الحسن بن على بجيوشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب ، وهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة واتبعوا آثارهم حتى وصلوا إلى ضواحي تونس ، وكانت غنية بتجارها الواسعة فحاصروها برا وبحرا وشددوا الحصار عليها فعرض أهلها أن يسلموا المدينة ، وقدموا مقدارًا جسيمًا من المال إلى ابن سعيد ، فطلب منهم مقدارًا أجسم مما قدموا فاضطروا إلى آدائه ، وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الأجناس ، وطرفًا من الحلى وذهبًا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وفيلة وعددا من الأرقاء ، ثم رجع بأسطوله إلى اشبيلية مشحونًا بهذه الغنائم الواسعة ففرح به الخليفة ورفاه إلى أسمى مراتب الشرف ، ورتب له فى كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب

أزعج استيلاء الحاجب احمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهديّة المعز لدين الله الفاطمى ، فهب لأخذ الثأر وشهر الحرب على بلاد المغرب التى كانت تحت حماية الناصر ، وأرسل جيشًا كبيرًا على رأسه قائده جوهر سنة ٣٤٧ هـ واستعد أهل المغرب لملاقاته ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين بجوار تاهرت وانتصر جوهر وقبض على يعلى قائد المغاربة وقتله ، وبمث برأسه إلى المعز ، ثم زحف

جوهر على سجلماسة وفتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح ، ثم أجه نحو فاس وحاصرها ودخلها في أواخر رمضان سنة ٣٤٩ (نوفمبر سنة ٩٦٠ م) ، وضرب أعناق أهلها وأسر والبيها من قبل الأمويين وهو أحمد بن أبي بكر الزناني ونهب المدينة ، وخرّب كثيرا من منازلها ، ثم أخذ يطارد جنود بني أمية في جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ، وأمرع الحسن بن قاتون الإدريسي واعترف بسيادة المعز ودخل في طاعته ، ثم عاد جوهر بعد انتصاره إلى أفريقية ومعه من الأسرى عدد كبير من رؤساء العشائر وشيوخ القبائل فاستقبله المعز في يوم مشهود شغلت حوادث أفريقية بال عبد الرحمن الناصر ، وضاعفت أحزانه ، وتأهب للنار ، ووجه إلى المغرب أسطولا قويا يقل كثيرا من الجنود البواسل ونزلوا ببلاد المغرب وامتلكوا فاس بعد معارك عنيفة ، واستولوا على مدن أخرى ، وأخضعوا كل البلاد من فاس إلى البحر المحيط ، وعاد خطباء المنابر في جميع المساجد يخاطبون باسم الامام عبد الرحمن الثالث ، وعاد الأمير الحسن بن قاتون إلى ولائه للناصر

تجدد الحرب مع ليون :

استمرت المناوشات بين الناصر ونصارى الشمال بعد معركة الخندق مدة طويلة وأخيرا رغب أوردنو في مصالحة الخليفة ، وأرسل رسولا إلى قرطبة يطلب الصلح في سنة ٩٥٥ م ، فأصغى اليه عبد الرحمن . وأرسل في السنة التالية الى ليون محمدا بن حسين وهداي المدير العام للجمارك للمفاوضة في شروط الصلح ، ولم تطل المفاوضات بسبب تساهل اوردنو اذ قبل تسليم بعض الحصون إلى المسلمين وهدم البعض الآخر ، ورجع الرسول الى قرطبة يحمل شروط المعاهدة فقبلها عبد الرحمن ، وكذلك عقد الصلح بين عبد الرحمن والملكة طوطة أميرة نفاار الوصية على ابنها غارسيا

ولكن لم يدم الصفاء بين المسلمين ونصارى الشمال طويلا وذلك بسبب موت
أوردنو الثالث في آخر سنة ٥٣٤٥ (مارس سنة ٩٥٧ م)

جلس على عرش مملكة ليون الأمير سانكو (شانجة) بعد موت أخيه
ورفض شروط الصلح المقودة مع عبد الرحمن ، ولم ينفذ ما تمهد به الملك المتوفى
فغضب الخليفة وأمر قائده القدير احمد بن يعلى والى طليطلة أن يزحف على
أملاك ليون ، فقام على رأس جيش وغزا بلاد النصارى وانتصر على سانكو
انتصارا باهرا

ثار الأمراء فى ليون فى وجه مليكهم الجديد لسوء تصرفه وكبريائه واستبداده
بالحكم . وكرهه الناس لفرط سمته إذ كان لا يستطيع ركوب الخيل ، وكان لا يمشى
إلا متكئا على آخر ، وانهز فردنيان أمير قشتالة فرصة سخط أهل ليون وتزعيم الثورة
وانضم اليه الجيش وأعلن خلع سانكو فى فصل الربيع عام ٩٥٨ م ، واختارت البلاد
ملكا جديدا يسمى اوردنو بن الفونسو الرابع ، فالتجأ الملك الخلع إلى نفاذه وشكا
ما أصابه الى جدته الملكة طوطه التى كانت تحكم البلاد باسم ابنها غارسيا ، وهذه
لجأت بدورها الى الناصر لتستعين به على إعادة سانكو إلى العرش ، وأرسلت
تطلب منه طبيبا من أطباء قرطبة ليعالج حفيدها من سمته الفظيع ، والعمل إلى
إعادته إلى عرش بلاده فقبل عبد الرحمن الطلب وأمر الطبيب هداى اليهودى
وكان من أمهر الاطباء فى قرطبة ومن كبار رجال سياستها أن يذهب إلى نفاذا
لمعرفته للغتها ، ويفاوض طوطه وابنها وحفيدها فى شروط صلح يعقد بين المسلمين
والنصارى وسانكو بعد معالجته وعودته إلى عرش البلاد ، ونجح الطبيب فى
المفاوضات وطلب إلى الملوك الثلاثة أن يزوروا قرطبة فلبوا الدعوة ورحلوا إلى قرطبة
وامتقبلهم الناصر استقبالا باهرا وأنزلهم فى الزهراء

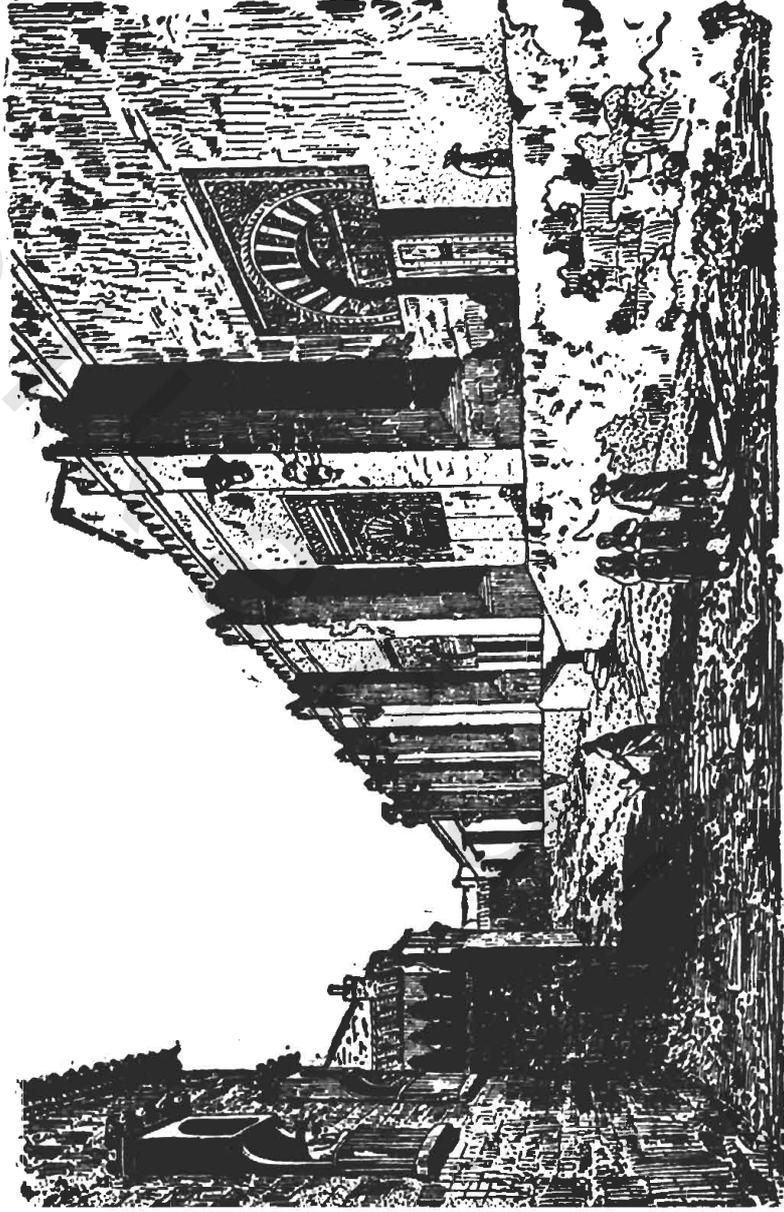
و بعد زمن هاجم جيش النصارى قشتالة ، وهاجم جيش من المسلمين ليون
يصحبه سانكو الذى كان قد عوفى من مرضه وصار نسيطا ، وانتصر الجيش على
المدافعين من أهل ليون واستولى على مدينة سموره ، وفى شهر ابريل سنة ٩٥٩ م
خضع جزء كبير من البلاد الى سانكو ، وسقطت العاصمة فى يده بعد مقاومة عنيفة
ودخل سانكو ظافرا بعد فرار أوردنو الرابع منها ، وأرسل سانكو إلى الناصر يشكره
على حسن صنيعه معه ، وقام بتسليم عشرة حصون إلى المسلمين ، منفذا بذلك
ماوعده رسول الناصر

لقب أمير المؤمنين :

كان أسلاف عبد الرحمن من الحكام الأمويين فى أسبانيا يلقبون بالأمراء
فقط ، مثلهم فى ذلك مثل الولاة الذين تولوها قبلهم منذ الفتح العربى ، ولم يتزعوا
إلى انتقال ألقاب الخلفاء فى الشرق مع أنهم كانوا ملوكا مستقلين وأعداء
للعباسيين ، وكانوا يستعملون النقود الشرقية ، فلما تولى عبد الرحمن الثالث أمر
البلاد تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين ، وضرب نقوداً جديدة باسمه وكتب
عليها ألقابه

يقول ابن خلدون : « إنه أول من تسمى بأمر المؤمنين عند ما تلاشى أمر
الخلافة بالشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله
مؤنس المظفر مولاة سنة سبع وعشرين وثلثمائة فتلقب بألقاب الخلفاء » .

وقال ابن عذارى : « إن عبد الرحمن هو أول من تسمى منهم بأمر المؤمنين
وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو الناصر ، ثم تسمى منهم من كان بعده من
خلفائهم بأمر المؤمنين ، وذلك حين ضعفت الخلافة العباسية وظهرت الدولة



منظر خارجی جامع قرطبة

obeykandl.com

التركية والديلمية ، فصارت إمرة المؤمنين لانتقته بمنصبه وكلمة باقية في عقبه ، فاستعمل الخطيب في جامع قرطبة احمد بن يحيى بن مخلد يذكر هذا الاسم المخلد يوم الجمعة الأول من سنة ٣١٦ هـ .

يقول أبو الفداء : « هو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الأندلس بألقاب الخلفاء وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان من قبله يخاطبون ويخطب لهم بالأمير وأبناء الخلفاء ، ويحيى عبد الرحمن كذلك إلى أن مضى من أمارته سبع وعشرون سنة ، فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق ، وظهور الخلفاء العفويين بإفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين أمر أن يلقب بلقب الناصر لدين الله ويخطب له بأمير المؤمنين » .

يؤخذ من هذه الروايات أن المؤرخين اختلفوا فيما بينهم في السنة التي تلقب فيها عبد الرحمن بلقب أمير المؤمنين ، ولكن دوزي بعد ان محص الروايات المختلفة ذكر أن عبد الرحمن تلقب بهذا اللقب في يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ وهو الموافق أول ذى الحجة سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا التاريخ هو أرجح التواريخ

نهضة العمارة وبناء الزهراء :

نهج الناصر منهج أسلافه من أمراء الأمويين في العناية بتشيد الأبنية الفخمة ، والتفنن في إتقانها ، فانه لما استفحل ملكه وخيم السلام على ربوع دولته حول جهوده إلى إقامة المعاهد والآثار الدالة على قوة الملك وعظمة السلطان ، فشيّد إلى جانب القصر الزاهر قصراً عظيماً سماه دار الروضة ، وجلب إليه الماء من الجبل ، واستدعى نوابغ المهندسين والبنائين من كل فج ، واجتمع إليه أمر صناع

القسطنطينية وبقداد ، ثم أخذ في بناء المنتزهات ، وساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر تشهد لمبتدعها بحسن المعرفة وسلامة الذوق ، وفي أول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) اختط مدينة الزهراء في شمال قرطبة على نحو خمسة أميال منها ، ويقال إن سبب بنائها ان جاريتة الزهراء وكان يحبها حباً جماً طلبت إليه أن يبنتي لها ضاحية جميلة ويسميا باسمها فلي عبد الرحمن الطلب وشيد تلك المدينة الفريدة ، وقد أتقن بناءها ، واحكم الصنعة فيها ، وجعلها مسكناً للزهراء وحاشيته ورجال حكومته ، واستمر العمل فيها نحو أربعين سنة إذ لم يتم تشييدها إلا في عهد ابنه الحكم

وقال ابن خلدون : « اختط الناصر مدينة الزهراء ، واتخذها منزله وكرسيه للملك ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مباني أسلافه ، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء ، متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلمة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب ، وغير ذلك من المهن »

روى المؤرخون انه كان يعمل في عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وأربعمائة بفل ، وكانت مباني الزهراء تشتمل على أربعة آلاف وثلاثمائة سارية ، وعلى ما ينيف على خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، وكان بها بحيرة ذات حيطان . وحمامان احدهما للعامة والآخر للخاصة ، وجامع وقصر للخلافة ، فالجامع كان ذا خمسة أهباء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة ومأذنة وصحن مكشوف ، وجميعه مفروش بالرخام الحمرى ، وفي وسطه فوارة يجرى منها الماء ، وقد اشتغل في بنائه آلاف من الصناع حتى أتموه في ثمانية وأربعين يوماً وذلك في شعبان سنة ٣٢٩ هـ ، وأما قصر الخلافة فكان فخماً عليه حلة من

الجمال مشرفا على الرياض فيه مجلس مرمدة قبه وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب ، وضع في وسطه اللؤلؤة القيمة التي أهداها إليه ليون ملك القسطنطينية ، وفيه حوض عجيب منقوش بتماثيل الانسان

وجعل عليه تماثيل من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ، ترى في هذه التماثيل صور الاسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة وغير ذلك من الحيوان ، تجم الماء من أفواهاها إلى الحوض وكان في كل جانب ، كما ورد في المقرئ ، ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار ، وأنه كان وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان الناصر اذا أراد أن يفرع أحدا من أهل مجلسه أو ما إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلعازب البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم

هذا ولم يقتصر الناصر على اتقان تجميل الزهراء بل جعل قرطبة بالقصور والمساجد ، وأنشأ بها نافورات ماء من المرمر الجميل ، وأنشأ كذلك في مساجد أشبيلية وفي غيرها من أمهات المدن بالأندلس تلك النافورات وأحاطها بالبساتين وغرس فيها الزينة والفاكهة وأصلح قنطرة الوادي الكبير

والخلاصة أن الناصر أنفق على عمارة البلاد مالا جسيما بالغ المؤرخون في تقديره مما يدل على اتساع موارد الدولة في عهده ، وعلى عظيم ما وصلت إليه من المحد والجاه .

ولاية العهد :

عنى الناصر بتربية ابنه الحكم ونهديه ، واختار لتعليمه كبار الأساتذة واستدعى اليه من بغداد اسماعيل بن القاسم المعروف بأبى على القالى وعهد اليه بمصاحبة الحكم فى قصر الزهراء فشب مولعا بالعلوم والآداب ، ولأنه كان أكبر اخوته كان أهلا لولاية عهد أبيه واختاره الناصر ولياً للعهد ، وقد حسده أخوه عبدالله على هذه الولاية ، ونافسه فى ذلك وتآمر مع آخرين على حرمان الحكم من ولاية العهد ولكن الناصر اكتشف مؤامرتهم وأمر بقتلهم أجمعين .

وفاة الناصر وكلمة ختامية :

توفى الناصر لدين الله فى شهر رمضان سنة خمسين وثلثمائة هجرية (أكتوبر سنة ٩٦١ م) وهو فى السبعين من عمره ويعتبر المؤرخون عهده أرفع ذروة بلغت عظمة الدولة الأموية بالأندلس ، وحدا فاصلا بين دور تقدمها ورفعتها ودور انحلالها وسقوطها ، كيف لا وقد تولى العرش وكانت الفتن والفوضى والثورات تهدد ملك بنى أمية بالزوال ، فتسلم زمام الأمر ، ونهض بحزم وعزم وقضى على كل هذه الفتن ، ودفع غارات الأسبان من مسيحيين ومسلمين ، وصد اطماع نصارى الشمال ، وصان بلاده من غارات الفاطميين ، وأصلح المختل من شئونها ، وملا خزائنها بالأموال ، وبلغ ما اقتصده عشرين مليوناً من الدنانير من دخل سنوى مقداره نحو ستة ملايين ونصف دينار ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وبلغت الأندلس فى عهده من القوة والمنعة ما جعل دول أوروبا تخطب ودها ، فأرسل امبراطور القسطنطينية وأمراء الألمان وملوك إيطاليا وفرنسا سفراءهم إلى

قرطبة ، وأصبحت آداب بلاط عبد الرحمن قانونا ساريا بما كى فى قصور الملوك ،
ويعد كثير من المؤرخين عبد الرحمن الناصر ملكا عصريا على الرغم من أنه
عاش فى العصور الوسطى ، اذ بدهائه جمع الشعب حوله ووحدته ، ونمى موارده
ودعم الحالة الاقتصادية ، ووطد التوازن الدولى بمحالفاته ، ووسع بلاطه واستخدم
رجالا من جميع الأديان مما دل على عظيم تسامحه ، فكان خير نموذج للملك
العصر الحديث

ومما يؤخذ عليه أنه حكم حكما مطلقا لا يقيم وزنا لشخصية أخرى غير شخصته
فنفر بذلك أمراء العرب والبربر ، ورقى صفار الموظفين من ذوى الحسب الوضيع
حكما ليكونوا طوع بنائه ، وعزل وزراءه وحاجبه ، واتخذ له جيشا من الصقالبة
بلغ عدده ١٤ ألفا ، وجعل لهم الحظوى لديه مما زاد فى سخط أمراء العرب والبربر
وقد ظهر ذلك جليا فى موقعة الخندق التى مر ذكرها ، وارتقى عدد كبير من الصقالبة
وشغلوا الوظائف العليا ، وتثقفوا بالثقافة الاسلامية ، ونبغ الكثيرون منهم فى
العلوم العربية وآدابها ، واخلصوا الاخلاص كله لسيدهم ، فكانوا اشبه بجند
الماليك الذين استكثر منهم الصالح ايوب فى مصر وسوريا

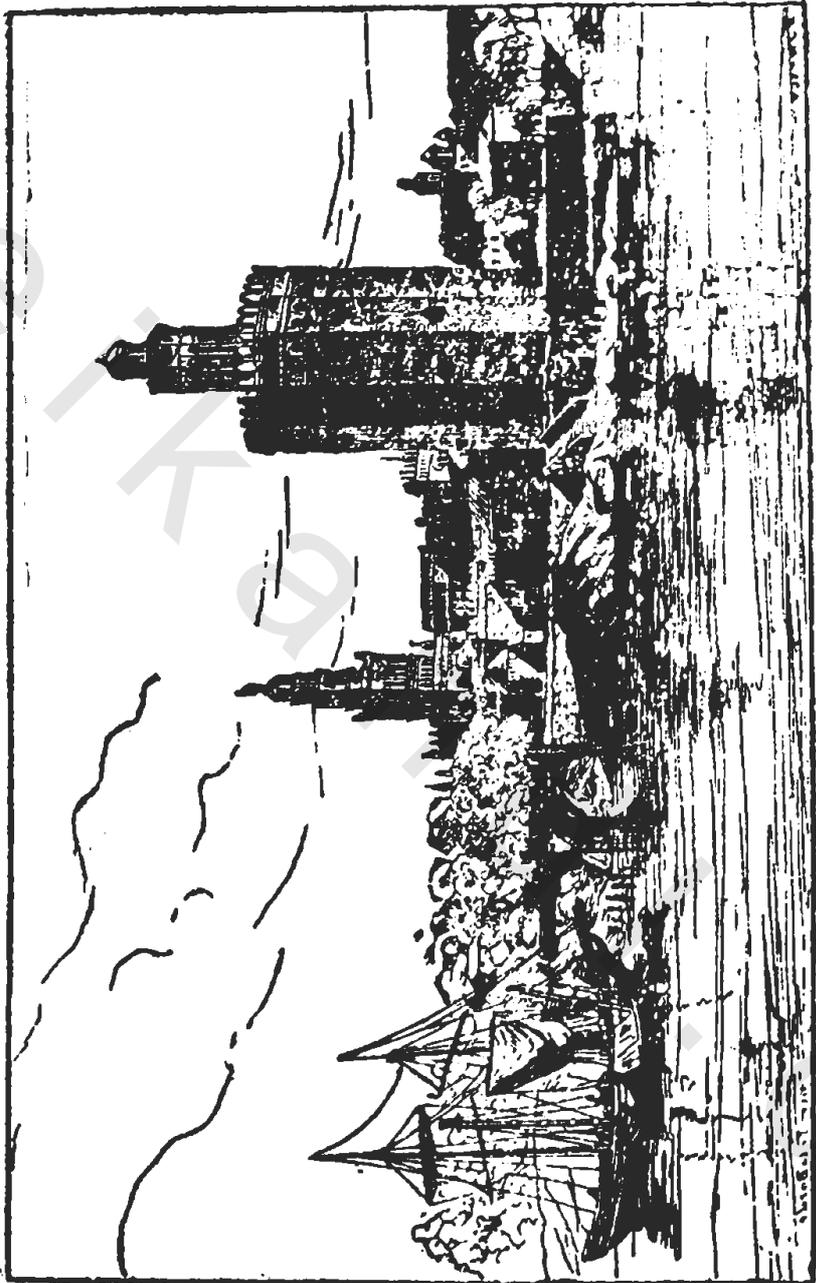
وقد جاء والبلاد تمزقها الفوضى ، معرضة لغارات نصارى الشمال والفاطميين
من الجنوب ، وعلى الرغم من العقبات التى اعترضته خالص الاندلس من التهلكة
وأكسبها النظام والرقى ، والسعادة فى الداخل ، والاعتبار والاحترام فى الخارج ،
وكان الغريب عن البلاد يروقه جمال مزارع الاندلس ، وهندسة ربها العجيبة ،
وكمال نظام القضاء ، وانخفاض أثمان الاطعمة والاقوات ، ورخاء الشعب ورفاهيته
ونظافة الملابس ، وكانت قرطبة فى عصره تضارع بغداد فى العظمة والحضارة

و بلغ عدد سكانها نصف مليون . وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد حماماتها
ثلاثمائة ، وعدد ضواحيها ثمانية وعشرون

ويقول لينبول «... وكانت النظافة لدى المسلمين معدودة من الايمان بينما كان
مسيحو العصور الوسطى يجرمون الاغتسال لانه في زعمهم عادة وثنية . وكان الرهبان
والراهبات يتباهون بالقذارة ، حتى أن احدى القديسات افتخرت أنها لم تغسل
جسدها إلى أن بلغت الستين من العمر ، فكانت القذارة من تعاليم الصلاح
والتقوى لدى المسيحيين ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك كانوا يراعون
أدق شروط النظافة ، وكان دينهم يحتم عليهم أن لا يقربوا الصلاة إلا إذا
توضأوا وتطهروا » .

يقول جوزيف مكاب : « أثرت البلاد في عهد عبد الرحمن الثالث ثراء
مدهشاً ، وزاد دخل الخزينة حتى بلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات من العشور
وحدها ، وألغى كل الضرائب التي كان ولاة الاقاليم والعصاة يرهقون بها
الأهلين ، ويقال إن ايراد الدولة تضاعف عشرين ضعفا عما كان عليه في
زمن عبد الرحمن الداخل ، وذلك في الوقت الذي كانت القوة الشرائية للنقود
تساوي خمسة امثال ما تساويه الآن على الأقل » .

ويقول في موضع ثان : « كان الطعام في عصره كثيرا ورخيصا ومتنوعا ،
وعاش ثلاثون مليوناً من الأنفس في رغد من العيش في الأندلس منذ ألف
سنة ، وذلك بفضل الادارة الحسنة التي تمتعت بها اسبانيا العربية في عهد عبد الرحمن
الناصر ، مع أن هذه البلاد لم تستطع نمو بين ستة ملايين من الأنفس وهو العدد
الذي وصل اليه سكانها في عهد حكامها من نصارى الاسبان بعد انتزاعها
من الحكم الاسلامي عقب وفاة هذا الحاكم القدير ببضعة قرون »



البحر الذهبي بأشبهاة

obeykandi.com

ويقول في موضع ثالث : « اختفى في عهد عبد الرحمن الناصر حكم الاقطاع من البلاد ، وأصبح الجيش في أحسن حالات العز يتناول أفرادهم مرتباتهم من الخزينة العامة ، وعلى شواطى الوادى الكبير ازدهرت القرى وبلغ عددها ١٢٠٠ وتوفرت وسائل النظافة بين سكانها . وترتع أهلها في بحبوجة اليسر والهناء وقت ان كان تسعة أعشار سكان في أوروبا ارقاء اذلاء ، يرزحون تحت اعباء البؤس والفاقة » .

قال دوزى : « نجد إذا مدارسنا ذلك العهد الزاهر أن الصانع يثير الاعجاب والدهشة اكثر مما يثيرها المصنوع ، كما يثير الاعجاب ايضا ذلك النبوغ الشامل الذى أحاط بكل شىء علما ، وتعرف إلى دقائق الامور فما ترك صغيرة ولا كبيرة الا احصاها »

الفصل الثاني

النهضة العلمية في الأندلس

الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ - ٥٣٦٦ - ٩٦١ - ٩٧٦ م)

تولى الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر بعد وفاة أبيه سنة ٩٦١ م ولم يكن ضعيف الرأي راغباً عن الاضطلاع بععبء المسئولية ، ولكنه كان منصرفاً إلى الأدب مولعاً بتشديد المباني والتفنن في تجميلها

علاقة الأندلس بنصاري الشمال في عهده :

لم تكن لوفاة عبد الرحمن الناصر رنة أسف في بلاط ليون أو نفاراً ، على الرغم مما كان له من أياد على البلاطين . بل رأى حكام تينك المقاطعتين في وفاته فرصة سانحة للتخلص من الالتزامات التي فرضها عليهم ، والتحرر من الوصاية الاسلامية ، وجرائم أعلى ذلك أن ظنوا في الحكم ابنه الظنون ، وتوهموا أنه فاقد لمواهب أبيه الحربية جانح إلى السلم ، فرفضوا تسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها وانضم إلى أميرى ليون ونفاراً وأمير قشتالة فرنان جونزاليز الذي بدأ الحكم بالعدوان ، فاغار على حدود الدولة الاسلامية يريد بذلك توسيع أملاكه ، فأمر الحكم قواده وعماله بتعبئة الجيوش ، ولما تمت التعبئة قاد الجيوش بنفسه باقدام وجرأة ، وضرب فرنان ضربة ساحقة مزقت جيشه واضطرتة إلى الفرار ، وخرب الحكم كثيراً من قلاع قشتالة الواقعة على نهر دورو ، ثم عاد إلى قرطبة بعد هذا النصر حيث تسمى بالمستنصر بالله ، وهناك وفد عليه الأمير أوردنو الشقي الذي كان قد طرده

سانكو من ليون بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر ، يعرض عليه الخضوع والولاء
ويستمد معونته فيما اعتزمه من محاولة استرداد عرشه ، وقابله الحكم الثاني في قصر
الزهراء بأبهة وعظمة فائقة ، وخلع عليه وعلى حاشيته ووعدده خيرا

ولم يلبث الحكم أن جهز جيشا بقيادة مولاة غالب لاعادة أوردنو إلى عرش
ليون ، ولكن سانكو أمير ليون أسرع بإرسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها
إلى الخليفة ، يؤكد له العزم على الوفاء بكل ما فرضته عليه معاهدة الصلح المعقودة
بينه وبين عبد الرحمن الناصر ، فأعرض الحكم عن تأييد أوردنو. على أن وفاة
أوردنو بعد ذلك بقليل شجعت سانكو على النكث بمهده ، فتجددت الحرب بين
الحكم وبين ليون وقشتالة ونفارا وقطونية ٩٦٢ م ، فأخذه الخليفة فرادى
وانتصر عليهم جميعا ، ومن عجيب أمر هؤلاء المسيحيين أنهم كانوا لا يلبثون أن
يمجدوا عدوانهم بعد الصلح وعقب الهزيمة ، وينقضوا المعاهدات قبل أن يجف
مدادها ، والظاهر أنهم كانوا يعدون حروبهم جهادا مشروعاً للدفاع عن وطنهم
ودينهم ، فلم تفقر لهم عزيمة ولم تغل من غار بهم هزيمة .

بدأ الحكم بمهاجمة فرنان جونزالز أمير قشتاله ، فاستولى على حصون بلاده
واضطره إلى الصلح . وانتصر قواد الحكم على بقية الأعداء . فهزم غالب
جيش ليون . وأخضع جليقية ، وهزم سانكو ، كما هزم يحيى بن محمد التجيبي حاكم
سرقسطة جارسيا أمير نفارا . وانضم غالب إلى يحيى فأتما إخضاع نفارا واضطر
سانكو أمير ليون إلى الخضوع وعقد الصلح ٩٦٦ م . وتبعه جارسيا أمير نافارا
وأمر باسك ، وغيرهم من الأمراء . وقبل الجميع أن يهدموا حصونهم القريبة من
حدود بلاد المسلمين ، وأن لا يساعدوا الثوار ولا يتحالفوا معهم ، ولا يعودوا إلى

بمجازرة الخليفة . وأظهرت الحوادث أن هذا الصلح ظل مرعبا وطيدا ، فساد السلام
ربوع الأندلس الاسلامية

أما الامراء المسيحيون فقد انشقوا على أنفسهم بعد ذلك ، وتفرقوا شيئا ،
وعمت الفوضى بلادهم حتى استحال عليهم أن يحموا بمهاجمة بلاد الخليفة

علاقة الأندلس بالمغرب الأقصى في عهده :

لم يعد الفاطميون مصدر خطر على الأندلس ، كما كانوا مدة عبد الرحمن
الناصر ، فان هؤلاء قد اشتغلوا بأمر مصر عن الأندلس ، ووجدوا فيها مغنا سهلا
يسد أطماعهم . فاستولوا عليها ، واسسوا القاهرة المعزية سنة ٩٦٩ م . ثم انتقل المعز
اليها عام ٩٧٢ م ، تاركا أبا الفتح يوسف بن زيري نائبا عنه في أفريقية والمغرب . وكان
من الممكن أن يترك الحكم الامراء المنتمين اليه في أفريقية وشأنهم ولكنه رأى
في ذلك ضياعا لهيبته . وكان الادارسة قد دخلوا في طاعة الفاطميين ، وأخذوا
يناوئون الامراء المواليين للأندلس . فاضطر الحكم إلى ارسال جيش إلى بلاد
المغرب ٩٧٢ م ، بقيادة مولاة غالب لتأديب أمير صنهاجه ، الذي ثار في وجه الحاكم
الأموي ولجأ إلى الفاطميين ، ولتأديب خليفة الحسن بن قنون أمير الادارسة ،
وانتصر غالب بفضل ما فرقه من الأموال بين قبائل زناتة ومكناسة ، ولكن
الخليفة شك في أمانة غالب ، ورأى أن يرسل اليه محاسبا أمينا . فاختر ابن أبي
عامر . وعينه قاضيا لقضاة المغرب ، ومراقبا لادارته السياسية والحربية ، وأوصاه
برقابة القواد ، وأمر أن لا يبت القواد ولا الحكام برأى في المسائل الهامة إلا
بعد استشارة ابن أبي عامر . وبفضل مرونته وكياسته استطاع أن يؤدي مهمته على
أتم وجه . ونجح غالب في اخضاع الادارسة ، ثم وافاه مدد بقيادة يحيى بن محمد

التجبي ، فمضى على الفتن ، وعاد إلى قرطبة ومعه الأمراء الادارسة أسرى عام ٩٧٤ م فأدخلهم الخليفة في خدمته

النهضة العلمية في عصر الحكم الثاني :

وعندما أخضع الحكم أعداءه المسيحيين ، وخلت الدولة الاسلامية فترة من المشاغل ، انصرف الحكم إلى الادب وعكف على التبصر في العلوم ، ولم تر الأندلس من قبله ولا من بعده ، أميرا في مثل ثقافته وعلمه وحكمته ، وأصبح شغله الشاغل اقتناء الكتب النادرة ، في الفلسفة والأدب والفقهاء كلفه ذلك . فاذا سمع بكتاب نادر اسرع إلى شرائه . . . وكان له وسطاء يجوبون بلاد الشرق ومصر والعراق وبلاد المغرب ، لجمع الكتب ونسخها . فجمع ٤٠٠ ألف كتاب ، مع أن الطباعة لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، ولم يكن الورق رخيصا . وكان الانسان أنى سار في قرطبة وحواضر الأندلس ، لا تقع عينه إلا على النساخ والمجلدين والمذهبيين . واستفادت الأندلس من هذه الكتب ومن النهضة العلمية التي انبعثت فيها . فأصبحت مقصد العلماء من بلاد المشرق للبحث والاطلاع ، وأصبح مسجد قرطبة جامعة من أهم جامعات ذلك العصر ، لا يداينها في منزلتها إلا الأزهر في القاهرة والجامعة النظامية في بغداد . وكان الحكم يمنح المكافآت العظيمة للمؤلفين . ومن ذلك أنه أرسل ألف دينار لأبي الفرج الاصفهاني ، اعانة له وتشجيعا على تأليف كتاب الاغانى ، وارسل نسخة منه إلى الأندلس وقرأ الحكم أغلب الكتب التي توافرت لديه في مكتبة قصره ، وكان يعلق عليها بخطه . وأضاعت بلاد الأندلس أنوار العرفان ، وقت أن كانت الأمية متفشية في الدول المعاصرة لها في أوروبا ، ومعرفة القراءة والكتابة قاصرة

على القسس ورجال الدين . وأسس الحكم بقرطبة ٢٧ مدرسة كبرى للفقراء ، حيث يطعمون ويكسون . وكان الحكم يدفع رواتب المعلمين ونفقات التلاميذ من جيبه الخاص . وكان يحاضر في جامعة قرطبة أبو بكر بن معاوية في الحديث ، وأبو علي القالي في أخبار العرب وآدابهم وجمعت محاضراته في كتاب (الامالي) المشهور . وكان ابن القوطية أستاذا للنحو والصرف وكان الطلبة يعدون بالآلوف — وكان أكثرهم يحضرون علم الفقه ، لأنه سبيل الرقي الى الرتب العالية . كما كان منهم من يحضر دروس الفلك والطب والفلسفة والتاريخ الطبيعى

أما عن الادب فقد ازدهر ونفقت سوقه ، فأصبح الشعر يقرضه الخاصة والعامه ويرتجله الشعراء

ظهور محمد بن أبى عامر :

وفى هذه الجامعة تعلم طالب نابه نخصه بالذكر ، هو محمد بن أبى عامر من نسل عبد الملك بن عامر المعاقري ، الذى وفد على الاندلس مع طارق بن زياد ويرجع نسبه الى بنى عامر ، قبيلة يمانية . وكان أبوه عبد الله من أشهر علماء عصره وجده محمد كان قاضى أشبيلية ، أما هو فكان قى لبقا ، شديد الذكاء ، قوى الخيال ، كبير المطامح ، واسع الامال ، حاد المزاج ، قوى البنية . ولما أتم دراسته دفعته الحاجة الى التماس الرزق من كتابة العرائض ، التى كان يرفعها أصحاب الظلمات للخليفة . ثم اشتغل كاتباً بمحكمة قرطبة . ولما كان قاضى قرطبة غير مرتاح للعمل معه لعدم اتفاق طباعهما ، سعى فى نقله الى وظيفة فى قصر الخليفة . وساعده فى ذلك صديقه الوزير المصحفى ، فتوسط فى تعيينه وزيرا لاملاك ابن الخليفة الاكبر الامير عبد الرحمن ، براتب قدره خمسة عشر دينارا . ووافقت

الملكة صباح على هذا الاختيار ٩٦٧م وكانت اسبانية من بلاد الباسك في شمال اسبانيا (ويسمىها العرب المشكنس) وهكذا بسم الحظ لمحمد ، وأعجبت الملكة بأدابه ، وحسن مظهره ، فعينته مديرا لأملاكها الخاصة أيضا . ثم انتقل بعد ذلك إلى منصب مدير دار الضرب . ونجح محمد في اكتساب رضاه الملكة وبفضل حسن هداياه نال الحظوة لدى الخليفة ، فأصبح قاضيا لاشبيلية وأميننا لهشام ولى عهد الحكم الثانى . وفى ٩٧٤م أصبح قائدا للفرقة الثانية من حرس الخليفة ، وبنى لنفسه قصرا بديعا بالرصافة ، كان مقصد طلاب الحاجات . ولم يأل جهدا فى اكتساب محبة الناس ورضاهم . ونجح سعيه ، فأصبح مديحه ملء الاسماع ، واكتسب صداقة القواد ، وأصبح مركزه وطيدا فى دولة الخلافة

ولى العهد :

أمر الحكم الثانى المستنصر قبيل وفاته بالبيعة لابنه وولى عهده هشام الثانى عام ٩٧٦م وكانت أمه الملكة صباح ذات نفوذ عظيم وحظوة كبرى

وفاة الحكم الثانى :

ثم توفى الحكم بقصره بقرطبة فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، ٩٧٦م . وكانت خلافته سنة عشر عاما الا بضعة أشهر